مراجعة كتاب:

الدر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير للمالقي

Al-Durr al-Nathīr wa al-ʿadhb al-Namīr in the *Sharḥ of al-Taysīr* Book written by al-Mālqiy

Al-Durr al-Nathīr wa al-ʿadhb al-Namīr dalam Huraian Kitab *al-Taysīr* oleh al-Mālqiy

محمد حسان الطيان*

تمهيد:

يعود تاريخ اهتمام علماء العربية بالصوت إلى عهد تقعيدهم القواعد وتأسيسهم النحو، بل يكاد يسبق ذلك، ولعل خبر أبي الأسود حين وضع رموز الحركات يجلو شيئاً من هذه الأولية، حيث نشأت ألقاب الحركات في العربية، وعدَّت من أكثر ألقاب الأصوات توفيقاً.

ثم مضى علماء العربية يؤلفون في النحو والصرف مَشُوبَيْنِ بأحكام الصوت وعلله، حتى إن كثيراً من ظواهر النحو والصرف لا يمكن تفسيرها إلا على أساسٍ صوتي؛ إذ تكمن وراءها علةٌ صوتية تؤثّر فيها وتعمل عمل العامل في النحو، كما تبنى الأبنية والصيغ في الصرف. ولا ريب أن الصرفَ أشدُّ التصاقاً من النحو بالأصوات ونظرياتها ونظمها، إذ ضم بحوثاً كاملة حقُّها أن تُدرج في علم الأصوات كالإدغام والإمالة والإبدال ونحوها، بل إن كثيراً من مباحث الصرف الرئيسة تعتمد على علل صوتية بحتة عبّر عنها المتقدمون بالخفّة والاستخفاف ودفع الاستثقال وما إلى ذلك.[١]

وهكذا اختلطت بحوث الصوت بالنحو والصرف إلى حدٍّ ضاعت فيه كثرةٌ من معالمها أو كادت، غير أنها عادت لتبرز على نحوٍ واضح في عِلمَيْن آخرين نشآ في رحاب القرآن الكريم، خدمةً له، وصوناً لترتيله وتلاوته، وحفظاً لوجوه أدائه، وصدعاً بالأمر الإلهي المحكم: ژ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ[٢] وتفصيلاً لهدي الرسول ρ الموحى إليه: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسَّر منه".[٣] وهما عِلما التجويد والقراءات حيث تفشو الكثرة الكاثرة من قواعد الصوت العربي وعلله وأحكامه.

فقد أسهم علماء القراءات والتجويد في إضافة تفصيلات صوتية إلى ما أُثِر عن الخليل وسيبويه، إذ سجّلوا خصائص صوتية تنفرد بها التلاوة القرآنية، ووضعوا أصولاً وقواعد تمثل كثيراً من هذه الخصائص،[٤] مما كان لَه أعظم الأثر في علم الأصوات. وسنحاول في هذا المبحث جلاء بعض هذه الخصائص من

* رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة العربية المفتوحة بالكويت، عضو مراسل بمجمع اللغة العربية بدمشق.

خلال كتاب الدر النثير.

الدر النثير للمالَقي:

الدر النثير كتاب في القراءات القرآنية شرح فيه مصنفه الإمام المالَقي الأندلسي (٧٠٥هـ) كتابَ التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الدَّاني (٤٤٤هـ) الذي كان إليه المنتهى في علم القراءات، والذي يعدُّ كتابهُ التيسير أشهرَ ما انتهى إلينا من كتب هذا الفن، ولا غروَ فهو أصل القصيدة الشاطبية، وناهيك بها من ركن مكين لعلم القراءات قيّدت شوارده، وجمعت أوابده، ولمت شعثه، وأحكمت أصوله، ووثّقت فرشه، حتى غدت أساسهُ وعُدَّتَه، لا يكاد يؤخذ إلا عن طريقها ولا يكاد يفهم إلا في شروحها وحواشيها.

والإمام المالَقي –مؤلف الدّرّ– على علم جمٍّ يشهد بعلوِّ كعبه في صناعة اللغة ودراسة أصواتها وأحكام بنائها؛ فقد جمع إلى شرف الرّواية دقّةَ الدّراية، وأُوتيَ إلى ذلك كله ذهناً لماحاً لا يقعد صاحبه عن طلب العلة والتماس السبب والحكمة في كل ما يعرض له من أحكام القراءات ووجوه الأداء.

وهنا يكمن الجانب الأهم في دراسة الصوت لديه، فهو لم يقتصر على المنهج الوصفي في تتبّع القراءات، وإنما تعدّاه إلى المنهج التحليلي؛ إذ أولى التعليل والتفسير عناية خاصة جعلته يقف عند كل ظاهرة صوتية وِقْفةَ تبصّرٍ وتدبرٍ، يبسط الكلام عليها فيجلو عللها، ويفسر أحكامها.

وهو يرقى في بعض تعليلاته وتحليلاته إلى مدرسة ابن جني ومن شايعه من أصحاب التعليل والتفسير في الدراسات اللسانية، هذه الدراسات التي تحمل أبلغ الردّ على أولئك الذين ينعتون منهج العلماء العرب في دراسة اللغة بالمنهج الوصفي، ويتهمونهم بأنهم اقتصروا عليه، ولم يُولُوا الجانبَ التفسيريَّ أيَّ اهتمام.[٥]

الإدغام في كتاب الدر النثير:

أولى المالقي هذا البحث عناية خاصة، إذ بسط الكلام على الإدغام مستوعباً كل ما يتعلق به من معانٍ، ودوافع، وأصول، وأحكام، وعلل، وأنواع، وموانع، حتى بلغ مجموع الصفحات المشتملة عليه خمساً وثلاثين ومئة صفحة (٦٣–١٩٨) من النص المحقق، وهو عدد ليس بالقليل، إذ به يكون هذا الباب أكبر أبواب الكتاب، وبما تضمّنه من أحكام في الصوت وما إليه يكون أكثرها أهمية، وقد قسّمه المالقي إلى قسمين؛ جعل الأول في تمهيد قواعد وتقرير أصول، فتحدث عن معنى الإدغام وأنواعه، وعرّج على ذكر مخارج الحروف وصفاتها، ثم انتقل إلى أنواع الحروف من حيث الاختلاف والتقارب وأنواعها من حيث القوة والضعف، وختم بعرض أضرب الحروف من حيث قبول الإدغام وامتناعه، وأما القسم الثاني فقد شرح فيه عبارات الداني في باب الإدغام الكبير مقسماً هذا الإدغام أقساماً أربعة، مستوعباً في كل قسم جميع أمثلته في القرآن الكريم وفق منهجه في الاستقصاء والشمول، ومعلّلاً جلَّ ما فيه من أحكام

الإدغام وعدمه، وما إلى ذلك بعلل صوتية بلغ فيها الغاية دقةً وفهماً.

معنى الإدغام:

جرى المالقي على سنن المؤلفين في بيان المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لما يتناولونه من أحكام، فبيّن المعنى اللغوي للإدغام وهو الإدخال أو التغطية، ثم انتقل إلى المعنى الاصطلاحي، وهو يقيّده باصطلاح القراء وأهل العربية –على عادته في التزام آراء أهل اللغة والنهل من مواردهم– ويصل إلى أنه: (إدخال الحرف في الحرف ودفنه فيه حتى لا يقع بينهما فصل بوقف ولا بحركة، ولكنك تعمل العضو الناطق بهما إعمالاً واحداً، فيكون الحاصل منهما في اللفظ حرفاً واحداً مشددا).[٦] وهو بهذا التعريف يلتقي مع تعاريف النحاة واللغويين للإدغام من لدن سيبويه إلى متأخريهم؛ إذ هي تجمع على أنه يُعتمد في الإدغام للحرفين المدغمين باللسان اعتمادةً واحدةً لأن المخرج واحد ينبو عنه اللسان نبوةً واحدةً،[٧] ولا يخرج عن تعاريف القراء والمجوّدين.[٨]

فمن تعاريف النحاة واللغويين قول سيبويه: (هذا باب الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً واحداً لا يزول عنه)،[٩] وقول ابن جني: (إنهم قد علموا أن إدغامَ الحرف في الحرف أخفُّ عليهم من إظهار الحرفين ألا ترى أن اللسان ينبو عنهما نبوة واحدة...).[١٠] وقول ابن يعيش: (... فيصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة شديدة).[١١]

ومن تعاريف القراء قول ابن الباذش: (الإدغام أن تصل حرفاً ساكناً بحرف مثله من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف، فيرتفع اللسان بالحرفين ارتفاعة واحدة).[١٢]

وهكذا نجد أن جملة هذه التعريفات تلتقي عند ملاحظة ارتفاع اللسان عن الصوتين المدغمين ارتفاعة واحدة، وهو ما أيّدته الدراسات الصوتية الحديثة؛ إذ قام العالم السويسري (فنتلر) منذ أكثر من خمسين عاماً بأبحاث تجريبية خرج منها (بأن الناطق بحرفين متواليين إذا تماثلا أو تشابها –لدرجة أن آلات النطق لكي تنطق الحرف الثاني منهما تحتاج أن تتحرك نفس الحركة التي تحركتها لكي تنطق الحرف الأول منهما– فإن الناطق لا يجيء بهذه الحركة إلا مرة واحدة).[١٣]

الأمر الثاني الذي يسترعي الانتباه في تعريف المالقي للإدغام بيانُهُ الفرق بين الحرف المدغم وغير المدغم إذ جعل ذلك من وجهين الأول: أنَّ المدغم مشدد وغير المدغم مخفّف، والثاني: أن زمان النطق بالحرف المدغم أطولُ من زمان النطق بالحرف غير المدغم بقدر ما فيه من التضعيف، كما أن زمان النطق بالحرفين المفكّكين أطول من زمان النطق بالحرف المدغم.

إن كلامه هذا على زمان النطق حريٌّ بالتأمل والتدبّر، لما ينطوي عليه من أهمية في علم الصوت الحديث، إذ أولت الدراسات الحديثة عنصر الزمن عناية بالغة، واستعانت بأجهزة التحليل المختلفة للوقوف على حقيقته.

قسم المالقي زمن النطق بالحروف من حيث الإدغامُ وعدمُهُ إلى ثلاثة أقسام أولها زمن النطق بالحرف

مفرداً وهو الأقصر ويمكن أن نرمز له بِ (ز١)، وثانيها زمن النطق بالحرفين مفككين وهو الأطول ويمكن أن نرمز لَه بِ (ز٢)، وثالثها زمن النطق بالحرف المدغم أو المشدد وهو وسط بين الاثنين ونرمز لَه بِ (ز٣). ويمكن التعبير عن ذلك بالمتراجحة التالية:

ز١ < ز٣ < ز٢

مثال ذلك : ز١= زمن النطق باللام من (سَلْ)

ز٢= زمن النطق باللامين من (اسْلُلْ)

ز٣= زمن النطق باللام المشددة من (سَلَّ)

لقد سبق بعض المتقدمين من علماء العربية والتجويد إلى تحديد عنصر الزمن، ونقل المالقي نفسه هنا شيئاً من ذلك عن الداني في كتابه (المفصح) وهو قوله: (إلا أن احتباسه في موضع الحرف المشدد لما زاد فيه التضعيف أكثر من احتباسه فيه بالحرف الواحد المخفف).[١٤]

وفي ذلك يقول صاحب مراح الأرواح: (الإدغام إلباث الحرف في مخرجه مقدار إلباث حرفين)[١٥] ثم يقول مفصلاً: (والمشدد زمانه أطول من زمان الحرف الواحد، وأقصر من زمان الحرفين).[١٦]

وتوافق الدراسات الصوتية الحديثة بتحليلاتها المخبرية ما جاء من ترتيب في أطوال هذه الأزمان الثلاثة، وفيما يأتي نتائج تحليلات لثلاث كلمات ورد فيها حرف اللام مرة مفرداً وأخرى مضعفاً وثالثة مكرراً، وهي: (سَأَلَ وسَلَّمَ ويُمْلِلُ). أجريت هذه التحليلات على حاسوب Macintosh باستخدام نظام Sound Edit لتحليل الصوت، وجرى قياس زمن النطق باللام في كل منها مع حركتها فكان على النحو الآتي:

- زمن النطق باللام المفردة في الكلمة الأولى (سألَ): ٠.٣٠ من الثانية
- زمن النطق باللام المشدّدة في الكلمة الثانية (سلَّم): ٠.٤٤ من الثانية
- زمن النطق باللام المكررة في الكلمة الثالثة (يملِلُ): ٠.٦٥ من الثانية

علل الإدغام الصوتية:

قبل الخوض في حديث العلل لابدّ من الإلماع إلى أن عناية المالقي بالعلل لم تصرفه عن التزامه بأصل القراءة الأول، وهو أن القراءة سنة متبعة، بل هو ينبّه عليه غيرَ مرّة، كقوله في إدغام المثلين: (وإنما أَدغم أبو عمرو ما أدغم من هذا الفصل اتباعاً لروايته عن أئمته مع الهرب من ثقل التفكيك، لأن المثلين إذا التقيا باتصال الكلمتين كان ذلك أطول في الكلام، وأثقل على اللسان، فكان التخفيف بالإدغام أوكدَ منه في الكلمة الواحدة).[١٧]

إن تعليلات المالقي الصوتية في باب الإدغام متناثرة موزعة على فصول الباب وفقراته، وهي من ثمَّ متنوعة بتنوع الموضوعات التي اشتمل عليها والحروف التي أدغمها أبو عمرو بن العلاء سيد القراء، وصاحب الإدغام الكبير، بيد أنه يمكن تصنيفها في زمر ثلاث هي: علة الإدغام الرئيسة التخفيف،

والعلل الجزئية لإدغام بعض الحروف، والعلل الجزئية لعدم إدغام بعض الحروف. وفيما يأتي الكلام على كلٍ منها:

آ– علة الإدغام الرئيسة التخفيف:

تتجلى علة الإدغام الرئيسة في كلام المالقي على فائدة الإدغام إذ قال: (وفائدة الإدغام تخفيف الكلمة).[١٨] وعلّلَ في موضع آخر إدغام المثلين بقوله: (وإنما أدغم أبو عمرو ما أدغم من هذا الفصل اتباعاً لروايته عن أئمته، مع الهرب من ثقل التفكيك لأن المثلين إذا التقيا باتصال الكلمتين كان ذلك أطول في الكلام، وأثقل على اللسان، فكان التخفيف بالإدغام أوكد منه في الكلمة الواحدة).[١٩] والحق أن التخفيف ودفع الاستثقال هو مدار الأمر في جلِّ علل الإدغام كما سنرى. ولم يكن المالقي بدعاً في ذكر هذه العلة، وإنما هو منعقَد خناصر العلماء من لدن سيبويه، وشيخه الخليل حتى يوم الناس هذا. فقد حكى المالَقي عن الخليل تشبيهه تكرار الحرف بمشي المقيد: (... إذ النطق بالحرف مرة واحدة – وإن كان مشدداً– أخفُّ من النطق به مرتين إذا فك. ولهذا شبه الخليل تكرار الحرف بمشي المقيد، ألا ترى أن المقيد إذا رفع رجله ثم وضعها عادت حيث كانت، فكذلك تكرار النطق بالحرف الواحد؛ لأن العضو الناطق يعتمد في المرة الثانية على ما اعتمد عليه في الأولى.[٢٠] وجاء في الكتاب: (... فإذا تحرك الحرف الآخِر فالعربُ مجمعون على الإدغام وذلك فيما زعم الخليل أولى به؛ لأنه لما كان من موضع واحد ثقل عليهم أن يرفعوا ألسنتهم من موضع ثم يعيدوها إلى ذلك الموضع للحرف الآخر فلما ثقل عليهم ذلك أرادوا أن يرفعوا رفعة واحدة).[٢١] وقال ابن جني: (إنهم قد علموا أن إدغام الحرف في الحرف أخفّ عليهم من إظهار الحرفين).[٢٢]

ثم طلعت علينا الدراسات اللسانية الحديثة بقانون لغوي عام ينتظم كل اللغات هو قانون الجهد الأقل (Le moindre effort) أو الاقتصاد في الجهد (Economy of effort)[٢٣] والمراد منه أن جميع اللغات تنحو في النطق خاصة نحو بذل أقل جهد ممكن، والإدغام من أكثر الظواهر اللغوية مِساساً بهذا القانون وتحقيقاً له، يقول إبراهيم أنيس في معرض حديثه عن تأثر الحروف بعضها ببعض: (والغرض من مثل هذا التأثر هو التقريب بين الصوتين المتجاورين ما أمكن تيسيراً لعملية النطق واقتصاداً في الجهد العضلي).[٢٤] ويقول عبد الصبور شاهين في معرض كلامه على الإدغام عند سيبويه: (وأول ما يلفت انتباهنا لديه أن الإدغام ليس سوى وسيلة للاقتصاد في الجهد العضلي أثناء النطق أي طلب الخفّة، سواء كانت خفّة إعرابية أم خفة صوتية).[٢٥]

ب– العلل الجزئية لإدغام بعض الحروف:

علل المالقي إدغام أكثر الحروف المدغمة، بعلل صوتية توزعت على هذه الحروف، وقِوام هذه العلل تبيان وجه التقارب بين كل حرف مدغم، وبين ما أدغم فيه، هذا التقارب الذي لا يحصل الإدغام دونه: (واعلم أن الحرف لا يبدل بالحرف لأجل الإدغام إلا إذا كانا متقاربين، والتقارب بين الحرفين يحصل

بالاشتراك في المخرج أو الصفات)[٢٦] وسأسرد فيما يلي طرفاً مما ذكره المالقي من هذه العلل مقروناً إلى حروفه مستخلصاً من عبارته:

١. القاف والكاف: الاشتراك في الشدة واتصال المخرج.[٢٧]

٢. الحاء والعين: اتحاد المخرج، ولم يفترقا إلا في وجه واحد وهو البَحاح الذي في الحاء، فلو زال صارت عيناً مجهورة كما أنه لو زال الجهر عن العين صارت حاءً بَحّةً).[٢٨]

٣. الجيم والشين: اتحاد المخرج.[٢٩]

٤. الجيم والتاء: الاشتراك في الشدّة.[٣٠]

٥. السين والزاي: الاشتراك في المخرج والرخاوة والصفير.[٣١]

٦. الضاد والذال: لا تقارب بينهما غير أن الضاد لاستطالتها تلحق بطرف اللسان والذال من الطرف.

٧. الشين والسين: الاتفاق في الهمس والرخاوة والاستفال، وأن في الشين التفشي وفي السين الصفير، وكلاهما زيادة في الحرف، وأن مخرج الشين من وسط اللسان ومخرج السين من طرفه فيلحقه الشين بمافيه من التفشّي.[٣٢]

٨. الضاد والشين: لا مقاربة بين الضاد والشين غير أن الضادَ لاستطالتها تتصل بمخرج الشين.[٣٣]

٩. النون مع الياء والواو: للنون غنة كما أن لحروف العلة ليناً وكلا الصفتين زيادة في الحرف، فضلا عن أن مخرج النون قريب من مخرج الياء والواو.[٣٤]

إن مدار هذه العلل على اختلاف الحروف المدغمة إنما هو التقارب بين الحروف، سواء أكان ناشئاً عن اتحاد في المخرج أم اشتراك في بعض الصفات أو عن كليهما معاً.

ويعبِّر المحدَثون من علماء الأصوات عن مثل هذا التقارب بالانسجام الصوتي بين أصوات اللغة –أيّ لغة– أو المماثلة Assimilation ويعرّفونها بأنها (عملية تغيّر صوتٍ ما في السلسلة الكلامية بحيث يماثل صوتاً آخر مجاوراً له)[٣٥] ويعرّفون أثرها بأنه (صوت أكثر قوة يؤثر في صوت أكثر ضعفاً فيحيله شبيهاً به)[٣٦] وهي نوعان مماثلة تقدمية Assimilation Progressive ومماثلة تراجعية Assimilation Régressive. أما الأولى فتعني أن صوتاً أثر في صوت تالٍ لَه كما نجد في صيغة افتعل من دعا: (ادتعى) حيث يؤثر صوت الدال المجهورة في صوت التاء المهموسة –وكلاهما من مخرج واحد– فتنقلب التاء دالاً وتدغم في سابقتها لتصبح الكلمة: ادّعى.

وأما الثانية وهي التراجعية فتعني أن صوتاً أثّر في صوت سابق له كما في إدغام **ژفڤڤـژ**[٣٧] حيث أثّر صوت الزاي المجهورة في صوت التاء المهموسة –وهما من مخرجين متقاربين– فقلبت التاء زاياً وأدغمت في لاحقتها لتصبح القراءة: (خبزِّدناهم). وعلى ذلك كل أمثلة الإدغام الصغير والكبير، بيد أن الكبير لا بدّ

فيه من التسكين أولاً لأن الحركة تحول بين الصوتين المتقاربين، فتمنع المماثلة،[٣٨] وفي ذلك يقول ابن جني: (ألا ترى أنك إنما أسكنتَه لتخلطه بالثاني وتجذبه إلى مضامَّته ومماسَّة لفظه بلفظه بزوال الحركة التي كانت حاجزة بينه وبينه).[٣٩]

إن قانون المماثلة (أو المشاكلة والمشابهة والانسجام الصوتي بين أصوات اللغة) قانونٌ شامل يتسع لكثير من أبواب الصرف والصوت كالإبدال والإمالة والإدغام، والذي يعنينا هنا تطبيقه على بحث الإدغام؛ إذ يمكن أن يعلِّل الكثير من أحكام الإدغام على اختلاف أنواعه وأقسامه، وإن ما ذكره المالقي من تعليلات لهذه الأحكام لا تكاد تخرج عما ذكره المحدثون في ذلك، وأكتفي هنا بالإشارة إلى ماذكره إبراهيم أنيس عندما عرض لظاهرة الإدغام، واستعرض الأصوات التي تدغم في مجانسها أو مقاربها كما رويت في القراءات القرآنية، فكان مما قاله مثلاً في إدغام الجيم في التاء في قوله تعالى: ژۓۓڭژ[٤٠] (وهنا يجب همس الجيم أولاً؛ لأن التاء صوت مهموس، ثم ينتقل مخرجها نحو الثنايا مع انحباس النفس انحباساً كاملاً لتصبح في شدة التاء، وهكذا يتم الإدغام)[٤١] فإذا وازناه مع كلام المالقي على هذا الإدغام وجدنا تشابهاً كبيراً مع زيادة عند المالقي الذي يقول في صدد تعليل إدغام الجيم في الشين والتاء: (والتقارب الذي بين الجيم والشين هو باتّحاد المخرج، وأما مقاربة الجيم للتاء فإنهما مشتركان في الشدة، وعلّل الحافظ جواز إدغام الجيم في التاء –وإن لم تكن من مخرجها– بأن الشين من مخرج الجيم والشين تتصل بما فيها من التفشي بمخرج التاء)،[٤٢] ومما قاله أنيس في إدغام القاف في الكاف: (... لأن القاف، كما يُنطَق بها الآن، لا فرق بينها وبين الكاف إلا في أن القاف أعمق قليلاً في أقصى الحنك)،[٤٣] ويقول المالقي في ذلك: (واعلم أن الذي أوجب التقارب بين القاف والكاف اشتراكهما في الشدة، واتصال مخرجيهما).[٤٤]

ولا تقتصر العلاقة بين الإدغام والمماثلة على العلة والسبب، وإنما تتعداهما إلى الغاية والهدف، ذلك لأن المماثلة ترمي إلى ما يرمي إليه الإدغام من التخفيف ودفع الاستثقال والاقتصاد في الجهد، وفي ذلك يقول ابروكرومبي: (وليست المماثلات قهرية Compulasory في كثير من اللغات، بما في ذلك الإنكليزية، فقد يتجنب المتكلم القيام بها، إذا ما رغب في ذلك، لكن عندما تتحقق تولد قدراً من الاقتصاد في الجهد Economy of effort المتعلق بنطق سلسلة من الكلمات، سواء أكانت تقدمية أم رجعية. فنتيجة المماثلة تقليل عدد الحركات والتعديلات التي تؤديها الأعضاء المنتجة للكلام حين الانتقال من كلمة إلى أخرى، أو تقليل مدى هذه الحركات والتعديلات).[٤٥]

ج– العلل الجزئية لعدم إدغام بعض الحروف:

ثمة موانع خاصة تمنع من إدغام بعض الحروف ببعضها الآخر مع وجود سبب الإدغام وهو التقارب، وقد سمّى المالقي هذه الموانع الخاصة عللاً، وذكرها تارة باسم علل الإظهار، وتارة أخرى باسم علل عدم الإدغام، وفيما يلي سرد موجز لها مستخلص من عبارة المالقي:

١. علة إظهار الضاد مع الذال: أن في الإدغام إذهاب الاستعلاء والاستطالة والتقاء الساكنين مع أن الأول حرف صحيح.[٤٦]

٢. علة إظهار الشين مع السين: أن في الإدغام إذهاب التفشي والتقاء الساكنين والأول حرف صحيح.[٤٧]

٣. علة عدم إدغام الكاف في قوله: ژگگں ژ[٤٨] الإجحاف بالكلمة من جهة أن الحرف المدغم مدفون فيما أدغم فيه، فقد ذهب لفظه وحركته والنون الخفية في حكم الذاهب أيضاً، فكأنه قد ذهب من الكلمة حرفان ولهذا قال الإمام: (فكأنك أدغمت حرفين وذلك رديءٌ جداً).[٤٩]

٤. علة عدم إدغام الكاف في القاف إذا تقدمها ساكن: الاستغناء بخفة الساكن عن تخفيف الإدغام.[٥٠]

٥. علة عدم إدغام الواو الساكنة بعد ضم عند ابن مجاهد وأصحابه: أنها –أي الواو– صارت حرفَ مدّ.[٥١]

٦. علة عدم إدغام الهمزتين: العدول إلى تسهيل إحداهما لما في إدغامها من الثقل الذي ليس في غيرها من الحروف.[٥٢]

يلاحظ في العلتين الأوليين (١) و (٢) أنهما مبنيتان على مبدأ صفات القوة؛ إذ إن إدغام الضاد والشين يسلبهما بعض صفات القوة التي من شأنها أن تؤثر في غيرها لا أن تتأثر بغيرها كما يقتضي قانون القوة، وهذه الصفات هي الاستعلاء والاستطالة والتفشي. والمالقي في مثل هذا التعليل تابع لمن تقدمه من أرباب العربية، يقول المبرد في تعليل امتناع إدغام الشين في الجيم: (ولا تدغم الشين في الجيم البتة لأن الشين من حروف التفشي، فلها استطالة من مخرجها حتى تتصل بمخرج الطاء، والإدغام لا يبخس الحروف ولا ينقصها).[٥٣]

وقد أضاف المالقي إلى كلا التعليلين (١) و(٢) التقاء الساكنين؛ لأن ما قبل الضاد والشين ساكن في جميع الأمثلة التي تناولها الكلام مثل ژڈڈڈڎژ[٥٤] وژڤڤژ[٥٥] فإذا ما تمّ الإدغام اجتمع ساكنان فزادت الكلمة ثقلاً بدلاً من أن تخفَّ بالإدغام.

أما العلة الثالثة (٣) فالحرفان فيها متماثلان وذلك أدعى للإدغام، إلا أنه امتنع لتقدمه بنون خفية، والإخفاء ضرب من الإدغام، لذلك قال الإمام (فكأنك أدغمت حرفين) وعليه فإن هذه العلة تلحق بما ورد في التشديد من موانع الإدغام.

وأما العلة الرابعة (٤) فلا أراها تثبت على النظر، ولو صحت لامتنع إدغام كل ما وقع بعد ساكن استغناءً بخفّة هذا الساكن عن تخفيف الإدغام. ولكن شيئاً من ذلك لم يقع، فما أكثر الأمثلة التي أدغم فيها حرف تالٍ لسكون. والذي يبدو لي –والله أعلم– أن إدغام الكاف في القاف إنما امتنع في ما ذكر

من الأمثلة لأن جلَّ هذه الأمثلة قد سبقت بياء ليِّنة (أي ياء ساكنة مسبوقة بفتح) نحو: ژۇۆۈۋژ [٥٦] فإذا ما أدغمت كان لا بد من مد حرف اللين لأنه متلو بحرف مدغم في مثله، وفي هذا المدِّ ثقل لأن الأصل في حرف اللين ألا يمدَّ إلا إن جاء قبل آخر حرف في كلمة موقوف عليها مثل (خَوْف) و (الخَيْر). وأما ما ورد من هذه الأمثلة غير مسبوق بياء فهما مثالان اثنان أولهما ژچچچچژ [٥٧] وهو يلحق بما ذكر عن قوله تعالى الوارد في العلة الثالثة، وثانيهما قوله تعالى: ژچچژ [٥٨] وقد أدغمه الإمام خلافاً للحافظ، وبذلك يخرج عما نحن بسبيله.[٥٩]

وأما العلة الخامسة (٥) فمبنية على أصل من أصول الإدغام ، وهو أن العرب لا تدغم حرف المدّ الذي استقرّ بنفسه حرف مدّ،[٦٠] وحرف الواو المقصود بهذه العلة –وإن لم يكن حرف مدّ– يغدو حرف مدٍّ بتسكينه، وذلك لوقوعه بعد ضم نحو: ژڤڃڃڃژ.[٦١] هذا كله على مذهب ابن مجاهد وأصحابه ممن لا يرون الإدغام في هذا الموضع، أما من يرى الإدغام فقد علل لَه المالقي بأن حرف المد هنا لم يستقرَّ في نفسه حرفَ مدٍّ، وإنما استعمل كذلك لعارض الوقف خاصة، أما تسكينه عند الإدغام فهو حكم تقديري غير منطوق به، إذ لا ينطق به إذ ذاك إلا حرفاً واحداً مشدداً.[٦٢]

وأما العلة السادسة (٦) وهي عن إدغام الهمزتين فلكون هذا الإدغام يخرج عن غايته التي هي التخفيف إلى نقيضها وهو الثقل؛ لما في الهمزة من ثقل، من أجل هذا كان العدول عن إدغام الهمزتين إلى تسهيل إحداهما في قراءة من سهّل.

وتجدر الإشارة إلى أن ولع المالقي بالتعليل بلغ مبلغاً يورد فيه العلة ونقيضها، وذلك في مواضع الخلاف في إدغام الحرف وإظهاره، من نحو ما صنع في اختلاف أهل الأداء في إدغام المعتل: (يبتغ ويخل ويك) حيث قال: (فمن أخذ بالإظهار راعى أن هذا الالتقاء عارض فلم يعتد به، ورأى أن المثلين في هذه المواضع في حكم المفصول بينهما بالحرف الأصلي الذي حذف للجزم مع ما في الإدغام من الإجحاف بالكلمة؛ إذ قد ذهب منها حرف بالجزم، ويذهب الثاني بالإدغام، ومن أخذ بالإدغام راعى التقاء المثلين في اللفظ، واعتد بالحذف وإن كان عارضاً، وراعى ثقل الكسرة في (يبتغِ) والضمة في (يخلُ و يكُ) ثم لَه أن يأخذ بالرَّوم فيندفع به الإجحاف؛ إذ لا يكون الرَّوم إلا مع ثبوت الحرف الأول، فترجع المسألة إلى إخفاء الحركة لا إلى الإدغام الصحيح).[٦٣] ومثل ذلك أيضاً ما رأيناه قبل قليل من تعليله إدغام الواو وإظهارها.

الخاتمة:

هذه نماذج من علل الإدغام عند المالقي، وتبقى من دونها علل أخرى متفرقة، كعلة حذف صلة الضمير عند الإدغام،[٦٤] وعلة بقاء الإمالة مع إدغام الراء في اللام تتعلق بأبواب أخرى من القراءات القرآنية لا يتسع لها هذا المبحث،[٦٥] وهي تدل على مقدار عناية علماء القراءات القرآنية بعلوم العربية ولاسيما علم

الصوت، وتشير إلى أهمية سبقهم إلى كثير من أحكام هذا العلم ودقائقه. وحسبنا هذه الملاحظات اليسيرة عن هذا الكتاب القيم الذي أصبح منارة للنحاة وأهل اللغة.

الهوامش:

[١] خليل، حلمي، **التفكير الصوتي عند الخليل**، ط١، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨م)، ص٧٨.

[٢] سورة المزمل، الآية ٤.

[٣] انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، (دار ابن كثير، ١٩٩٤)، باب قول الله تعالى فاقرءوا ما تيسر من القرآن، رقم الحديث (٧١١١).

[٤] السعران، محمود، **علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي**، (بيروت: دار النهضة العربية، د. ت)، ص٦٩.

[٥] فرغلي، علي، "عصر المعلومات ومناهج البحث في العلوم الإنسانية"، **مجلة عالم الفكر**، الكويت، مجلد (١٢)، العدد (٣)، سنة ١٩٩٣م، ص٩٩٢.

[٦] المالقي، عبد الواحد، **الدر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير**، تحقيق: محمد حسان الطيان، (دمشق: مجمع اللغة العربية، ٢٠٠٦م)، ص٦٣.

[٧] انظر: سيبويه، عمرو بن عثمان، **كتاب سيبويه**، تحقيق: عبد السلام هارون، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٦٦م)، ج٢، ص١٥٨، وج٢، ص٢٥٤، و٢٤١، وج٣، ص٥٣٠، وج٤، ص١٠٤-١٠٥، و٤٣٧، و٤٥٤؛ وابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، ط٢، (بيروت: مصورة عن دار الكتب المصرية، دار الهدى للطباعة والنشر، د. ت)، ج٢، ص٢٢٧-٢٢٨؛ وابن جني، أبو الفتح عثمان، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: مصطفى السقا وزملائه، ط١، (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٤م)، ج١، ص١٨٩؛ والأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق: محمد نور الحسن، والزفزاف وعبد الحميد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٥م)، ج٣، ص٢٣٣؛ **و**النحوي، ابن يعيش، **شرح المفصل** (بيروت: عالم الكتب، القاهرة: مكتبة المتنبي، د. ت)، ج١٠، ص١٢١؛ والأندلسي، أبو حيان النحوي، **المبدع في التصريف**، تحقيق: عبد الحميد السيد طلب، ط١، (الكويت: دار العروبة للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م)، ص٢٤٥.

[٨] انظر: ابن مجاهد، **السبعة في القراءات**، تحقيق: شوقي ضيف، ط٢، (القاهرة: دار المعارف،١٩٨٠م)، ص١٢٥؛ والقيسي، مكي بن أبي طالب، **الكشف عن وجوه القراءات السبع**، تحقيق: محيي الدين رمضان، (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٩٧٤م)، ج١، ص١٣٤؛ والأنصاري، أبوجعفر بن الباذش، **الإقناع**، تحقيق: عبد المجيد قطامش، (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٣هـ)، ج١، ص١٦٤؛ والحموي، أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرضا، **القواعد والإشارات في أصول القراءات**، ط١، تحقيق: عبد الكريم بكّار، (دمشق: دار القلم، ١٩٨٦م)، ص.٤٤.

[٩] سيبويه، **الكتاب**، ج٢، ص٤٠٧، ج٤، ص٤٣٧.

[١٠] ابن جني، **الخصائص**، ج٢، ص٢٢٨.

[١١] النحوي، ابن يعيش، **شرح المفصل**، ج١٠، ص١٢١.

[١٢] ابن الباذش، **الإقناع**، ج١، ص١٦٤.

[١٣] شاهين، عبد الصبور، **أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي**، ط١، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٧م)، ص٢١٣.

[١٤] المالقي، **الدر النثير**، ص٦٤.

[١٥] **مراح الأرواح**، ص٨٢. نقلاً عن: عبد التواب، رمضان، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، ط٢، (القاهرة: مكتب الخانجي، ١٩٨٥م)، ص٩٩.

[١٦] **مراح الأرواح** ٨٣. نقلاً عن السابق نفسه.

[١٧] المالقي، **الدر النثير**، ص٩٩.

[١٨] السابق نفسه، ص٦٤.

[١٩] السابق نفسه، ص٩٩.

[٢٠] انظر: السابق نفسه، ص٦٤-٦٥.

[٢١] سيبويه، **الكتاب**، ج٢، ص١٥٨، **و** ج٣، ص٥٣٠..

[٢٢] ابن جني، **الخصائص**، ج٢، ص٢٢٨؛ وانظر أيضاً في فائدة الإدغام: الفراء، يحيى بن زياد، **معاني القرآن**، ط٢ ، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، (بيروت: عالم الكتب،١٩٨٠م)، ج٢، ص٣٥٣؛ والأخفش، **معاني القرآن**، تحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٩٨٥م)، ج١، ص١٠٦؛ وابن مجاهد، **السبعة في القراءات**، ص١٢٥؛ والفارسي، أبو علي الحسن بن عبد الغفار، **الحجة للقراء السبعة**، ط١، تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي، (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٩٨٤م)، ج١، ص١٥٩؛ وابن جني، **سر الصناعة**، ج١، ص١٨٩؛ و**مقدمة ما ذكره الكوفيون من الإدغام**، ص٣٠-٣٢.

[٢٣] أبركرومبي، ديفيد، **مبادئ علم الأصوات**، ط١، ترجمة وتعليق: محمد فتيح، (١٩٨٨م)، ص١٩٦. وقد سمّى إبراهيم أنيس هذا القانون نظرية السهولة. انظر: أنيس، إبراهيم، **الأصوات اللغوية**، ط٥، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م)، ص٢٣٤-٢٣٧.

[٢٤] أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص١٨٤.

[٢٥] شاهين، **أثر القراءات**، ص٢١١.

[٢٦] المالقي، **الدر النثير**، ص٦٥.

[٢٧] انظر: السابق نفسه، ص١٤٧.

[٢٨] السابق نفسه، ص١٥٥-١٥٦.

[٢٩] انظر: السابق نفسه، ص١٥٩.

[٣٠] انظر: السابق نفسه، ص١٥٩.

[٣١] انظر: السابق نفسه، ص١٦٣.

[٣٢] انظر: السابق نفسه، ص١٦٠-١٦١.

[٣٣] انظر: السابق نفسه، ص١٦٢.

[٣٤] انظر: السابق نفسه، ص١٣٦.

[٣٥] بركة، بسام، **علم الأصوات العام: أصوات اللغة العربية**، (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٨٨م)، ص١٨٠.

[٣٦] شاهين، **أثر القراءات**، ص٢٣٢.

[٣٧] سورة الإسراء، الآية ٩٧.

[٣٨] انظر: شاهين، **أثر القراءات**، ص٢٣٩.

[٣٩] ابن جني، **الخصائص**، ج٢، ص١٤٠.

[٤٠] سورة المعارج، الآية ٣ و٤.

[٤١] أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص١٩٥.

[٤٢] المالقي، **الدر النثير**، ص١٥٩.

[٤٣] أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص٢٠٠.

[٤٤] المالقي، **الدر النثير**، ص١٤٧.

[٤٥] ابروكرومبي، **مبادئ علم الأصوات العام**، ص١٩٦. وقد عقد ابروكرومبي للمماثلة فصلاً مفرداً في كتابه هذا وهو الفصل الثامن ١٩٣-٢٠١؛ وانظر في المماثلة أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص١٧٨-٢٠٦؛ وشاهين، **أثر القراءات**، ص٢٣١-٢٣٩؛ وبركة، **علم الأصوات العام**، ص٩٤-٩٦ و١٨٠.

[٤٦] المالقي، **الدر النثير**، ص١٦٢.

[٤٧] انظر: السابق نفسه، ص١٦٠.

[٤٨] سورة لقمان، الآية ٢٣.

[٤٩] السابق نفسه، ص١٢٩.

[٥٠] انظر: السابق نفسه، ص١٥١.

[٥١] انظر: السابق نفسه، ص١٤٢.

[٥٢] انظر: السابق نفسه، ص ١٠٠.

[٥٣] أصل العبارة مأخوذ من سيبويه، انظر: سيبويه، **الكتاب**، ج٢، ص٤١٢، وج٤، ص٤٤٨.

[٥٤] سورة الإسراء، الآية ٤٢.

[٥٥] سورة النور، الآية ٦٢.

[٥٦] سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

[٥٧] سورة يس، الآية ٧٦.

[٥٨] سورة الجمعة، الآية ١١.

[٥٩] انظر: المالقي، **الدر النثير**، ص١٥٨.

[٦٠] انظر: السابق نفسه، ص١٤٣.

[٦١] سورة البقرة، الآية ٢٤٩. وانظر: المالقي، **الدر النثير**، ص١٤١-١٤٢.

[٦٢] انظر: المالقي، **الدر النثير**، ص١٤٤.

[٦٣] السابق نفسه، ص١٣٥.

[٦٤] انظر: السابق نفسه، ص١٠٥.

[٦٥] انظر: السابق نفسه، ص١٨٢.